

المصطلح اللساني عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل
الإعجاز" دراسة في ضوء النظريات اللسانية الحديثة-

The linguistic term when Abdelkahir algorgani through his book
dalail eliedjaz study through modern linguistic theories

الباحثة فاطمة الزهراء نايلي

جامعة البليدة 2 -لونيسى علي--

البريد الالكتروني fatima_naili28@yahoo.com

الاستلام: 2018/04/23

القبول: 2018/05/07

ملخص :

يعدّ التراث اللغوي العربي مرجعا لكثير من الدّراسات حديثا، ولأهميته وقيّمته العلميّة واللّغوية يدعونا الأمر وهذه الحال – نحن الباحثين-لاستجلاء ماهيته؛ لأنّ كلّ ما هو جديد لابدّ وأن يكون له الكثير من التّمظهرات والامتدادات في النّصّ التراثي، فالبحث في التراث العربيّ الإسلاميّ عامّة وفي كتاب دلائل الإعجاز –خاصّة- بوصفه موسوعة ليس في البلاغة والنّقد والأدب فحسب، بل في اللّغة كذلك؛ لما تضمّنه من مفاهيم ومصطلحات لغوية ومفاهيم دالّة عليها جديرة بالبحث والاستقصاء، يعدّ مدونة ساهمت في التّأسيس لكثير من النّظريات اللّغوية والأدبية الحديثة، وقد تنوّعت فيه الدّراسات باختلاف التّخصّصات، كالنّحو والبلاغة والأصول وغيرها.

وسنحاول في هذا المقال أن نكشف عن بعض النّماذج المفاهيميّة والمصطلحيّة في اللّسانيات من خلال كتاب دلائل الإعجاز في علم المعاني، والإجابة عن الإشكالية الآتية: هل يمكن أن نصف تلك المصطلحات اللّسانية الموجودة في هذا الكتاب والمفاهيم الدالّة عليها، بأنّها مفاهيم ومصطلحات لسانيّة حديثة؟

وقد أنهينا هذا المقال بخاتمة عرضنا فيها لأهمّ النّتائج، مع إبداء الرّأي.

الكلمات المفتاحية: التراث اللّغويّ العربيّ، دلائل الإعجاز في علم المعاني، اللّسانيات، المصطلح اللّساني، النّظريات اللّسانية الحديثة.

Abstract:

We will try in this presentation to detect some of the conceptual models and terminology in linguistics through the modern studies of signs in semantics and answer the following questions: Is it possible that half of those linguistic concepts and terminology in this book are the concepts of modern linguistic and terminology? Moreover we have described so, are they close in meaning with the modern linguistic concepts or different among them?

We finished this intervention which has been offered the conclusion of the most important results, with opinion .

Key words : Ancien Arabic linguistic - dalail eliedjaz – linguistic - linguistic term - Modern linguistic theories .

نصّ المقال:

تمهيد: قبل العرض للموضوع بالمناقشة والتحليل وجب من العلمية والدقة أن نعرّف لفظ "مصطلح" في اللغة وفي الاصطلاح كما يأتي:

1- تعريف المصطلح

1-1- لغة: جاء في معجم لسان العرب (لابن منظور)(ت 711هـ) مادة (ص ل ح) قوله: "صلح: الصلّاح ضدّ الفساد، صلح، يصلح، يصلح، صلاحا وصلوحا والإصلاح نقيض الفساد والصلح: تصالّح القوم بينهم، والصلح: السّلم وقد اصطلحوا وصالحو واصلّحوا، وتصالحو واصلّحو مشدّدة الصّاد قلبوا التّاء صادًا وأدغموها في الصّاد لمعنى واحد..."¹

أمّا في المعجم الوسيط فقد جاء فيه: "صلح: صلاحا وصلوحا: زال عنه الفساد اصطلاح القوم: زال ما بينهم من خلاف وعلى الأمر تعارفوا عليه واتّفقوا تصالحو: اصطلحو، (الاصطلاح) مصدر اصطلاح واتّفاق طائفة على شيء مخصوص ولكلّ علم اصطلاحاته."²

1-2- اصطلاحاً: أستخدم لفظ الاصطلاح للدلالة على نقل كلمة ما من اللغة العامة إلى لغة التخصص؛ للدلالة على مفهوم المصطلح داخل حقله اللغوي ومجاله التخصصي، وقد وضع (الشريف الجرجاني) في كتابه: "التعريفات" عدّة تعريفات للفظ "الاصطلاح"، حيث يعرفه بأنّه: "عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ينقل عن موضعه الأول". وبأنّه: "إخراج اللفظ عن معنى لغويّ إلى آخر لمناسبة بينهما، وقيل الاصطلاح اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى وقيل الاصطلاح إخراج الشيء عن معنى لغويّ إلى آخر لبيان المراد، وقيل الاصطلاح لفظ معيّن بين قوم معيّنين".³ يتّضح لنا من تعريفات (الجرجاني) للمصطلح، أنّ المصطلح عبارة عن انتقال اللفظ من دلالة عامّة إلى دلالة خاصّة، مع وجود علاقة بين المعنيين لوضع المصطلح.

أما اللغويون المحدثون فقد وضع (محمود فهمي حجازي) تعريفاً للمصطلح، بقوله: "الكلمة الاصطلاحية، أو العبارة الاصطلاحية: مفهوم مفرد أو عبارة مركبة استقرّ معناها، أو بالأحرى استخدامها وحدّد في وضوح، هو تعبير خاصّ ضيق في دلالته المتخصّصة واضح إلى أقصى درجة ممكنة، وله مايقابله في اللغات الأخرى يرد دائماً في سياق النظام الخاصّ بمصطلحات فرع محدّد، فيتحدّد بذلك وضوحه الضّروري".⁴

يقدم (محمود فهمي حجازي) شروطاً لوضع المصطلح نستنتجها من تعريفه، وهي كالآتي:

1- استقرار معنى المفردة واستخدامها على مدلول معيّن.

2- وضوح مفهوم المصطلح بشكل دقيق.

3- وجود مقابل للمصطلح في اللغات الأخرى.

4- ورود المصطلح في مجاله وحقله التخصصي.

وبعد هذا التّقديم الموجز لبعض التعريفات الخاصة بالمصطلح، سنعرض للمصطلحات اللسانية في كتاب دلائل الإعجاز بدءاً بالمدرسة البنيوية السويسرية:

1- الجرجاني والمفاهيم اللسانية في الاتجاه البنيوي: "تعدّ الأبحاث التي قدّمها (دي سوسير) ما بين (1906-1911م) من أهمّ الدراسات اللسانية البنيوية، إذ كان أول من دعا إلى دراسة اللغة في ذاتها دراسة وصفية تبحث في نظامها وقوانينها دونما الاهتمام بجوانبها التاريخية التطورية الرّمانية والهدف الرئيسي للتّظيرة اللسانية البنيوية هو دراسة اللغة موضوع اللسانيات في ذاتها ولذاتها، وكانت أهمّ المبادئ التي استخلصها دي سوسير من دراسته للغة والتي ساهمت في نشأة الاتجاه البنيوي الأوروبي، كالآتي:

- ميّز (دي سوسير) بين الدّراسة الوصفية للغة وبين الدّراسة التّاريخية.
- إنّ اللغة نظام من الإشارات التي تشير للمقصود بنية التّبلغ والتّخاطب والتّواصل، فاللغة أصوات يعرّبها النّاس عن أغراضهم قصد الإبانة والإفهام.
- التّفريق بين اللغة والكلام (Langue-Parole). فاللغة تسبق الكلام -حسب دي سوسير- مادامت نظاما يتسبّب في إيجاد الخطابات الممكن وضعها.⁵
- انطلاقا من هذا القول، يتبيّن لنا أنّ البنيوية تقوم على كشف العلاقات بين الوحدات اللغوية واعتبار اللغة كنظام من العلامات، حيث ارتكزت رؤيتها للغة على مجموعة من المبادئ، أهمّها:

- مفهوم العلامة اللغوية.
- دراسة العلاقات التركيبية والاستبدالية.
- العلاقة الاعتباطية بين الدّال والمدلول.

في ضوء هذه المفاهيم يمكننا طرح الإشكال الآتي: كيف وردت هذه المفاهيم اللسانية في كتاب دلائل الإعجاز؟ وماهي المصطلحات التي صيغت بها؟

كما رأينا، فقد عدّ (دي سوسير) اللغة نظاما ومؤسسة اجتماعية ويؤكّد ذلك قوله: "...ويجزّنا هذا الاعتراض إلى وضع اللغة في إطارها الاجتماعي وإلى طرح المسألة كما طرح بالنسبة إلى سائر المؤسسات الأخرى، كأن نعرف كيف تتوارث الأجيال بعضها عن بعض سائر المؤسسات الاجتماعية."⁶ في حين أنّ الكلام نتاج فرديّ إراديّ، إذ يقول: "لا ينبغي الخلط بين اللغة واللّسان فما اللغة إلا جزء محدّد منه، بل عنصر أساسي وهي في نفس الوقت نتاج اجتماعيّ لملكة اللّسان."⁷ فاللغة في نظره هي ظاهرة إنسانية واللّسان يمثّل

جزءاً معيناً متحقق من اللغة بمعناها الإنساني وهو اجتماعي ومكتسب، يشكّل نظاماً متعارفاً عليه داخل جماعة إنسانية محدّدة، فقد اهتمّ (دي سوسير) بالبنية اللغوية؛ لأنّه نظر إلى اللغة في ذاتها ولأجل ذاتها؛ أي: كلّ العلاقات البنوية الداخلية التي تشكّل الأنظمة اللغوية.

أمّا (الجرجاني) فقد عدّ اللغة وسيلة اتصال وتخطاب وليست غاية في حدّ ذاتها، ويؤكد ذلك قوله: "قد أجمع العقلاء أنّ العلم بمقاصد النَّاس في محاوراتهم علم ضرورة."⁸ ويقول كذلك: "إنّما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السّامع غرض المتكلّم ومقصوده."⁹

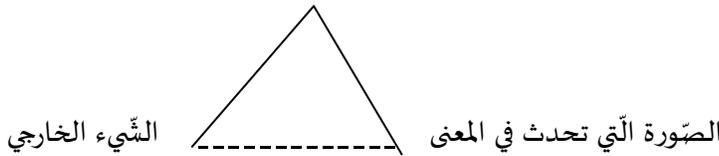
يتّضح لنا، أنّ وظيفة اللغة عند (الجرجاني) وغرضها الأوّل والأساسي هو التّواصل وتبليغ المقاصد للمتلقّي "وجملة الأمر أنّ الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه ويرجّح فيها عقله وتوصف بأنّها مقاصد وأغراض."¹⁰ فاستعمال اللغة عند (الجرجاني) مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمقاصد والأغراض التي يسعى المخاطب إلى نقلها للمتلقّي.

نلاحظ من خلال هذه اللّحة الموجزة، وجود تقارب مفهومي بين (الجرجاني) و(دي سوسير) في نظر كلّ منهما إلى اللغة على أنّها ظاهرة إنسانية ووسيلة اتّصال ونقل للأفكار بين المتكلّم والسّامع، غير أنّ (دي سوسير) كان تركيزه على الكلام باعتباره نظاماً من الأدلّة المتواضع عليها لغرض التّواصل والتّبليغ.

وإذا رجعنا إلى مفهوم "العلامة"، نجد (دي سوسير) يرى أنّ العلامة اللغوية تتألّف من ثنائية (الدالّ والمدلول) تربط بينهما علاقة اعتباطية، فالدالّ هو الصّورة السّمعية والكلمات المنطوقة "إنّ عناصر الدّوال السّمعية تظهر الواحد بعد الآخر مشكّلة في ذلك سلسلة، وما إن تمثّل هذه العناصر كتابة..."¹¹ أمّا المدلول فيمثّل في الصّورة الذهنية، فالعلامة اللسانية (كتاب) مثلاً صورتها السّمعية هي الحروف المتمثّلة في السلسلة الصّوتية من (ك+ - (فتحة) + ت+ - (فتحة) + ا+ ب)، أمّا معناها أو مدلولها فهو كلّ ما يترتّب في ذهن المخاطب عند سماعه لهذا المصطلح وهو مثلاً مجموعة من الأوراق المكتوبة والمنظمة للقراءة والمطالعة، وغيرها من المعاني والصّور الذهنيّة التي يمكن أن ترتسم في ذهن المتلقّي عند سماعه لكلمة "كتاب": "لأنّ (دي سوسير) يعدّ الدالّ مجموعة من الأصوات المتواضع عليها لتدلّ على شيء معيّن، وقد أوضح (الجرجاني) هذا المفهوم في

دراسته للعلاقة بين اللفظ والمعنى وتأكيديه أنهما متلازمان بحيث لا يمكن الاستغناء عن عنصر منهما "... فلو أنّ واضع اللّغة كان قد وضع "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد."¹² فالـ(الجرجاني) يؤكّد من خلال قوله على العلاقة غير المعلّلة بين الدوالّ ومدلولاتها " فالألفاظ المفردة الّتي هي أوضاع اللّغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، لكن لأنّ يضمّ بعضها لبعض فيعرف فيما بينها من فوائد."¹³ كما يشترك كلّ من اللفظ والمعنى عند (الجرجاني) في إعطاء صورة الدليل اللّساني حيث يقول: " فليعلموا- أيّ: محترفو الشّعور والنقد- أنّهم لم يوجبوا ما أوجبوا من الفضيلة وهم يعنون نطق اللّسان و أجراس الحروف ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم إن يقولوا اللفظ وهم يريدون الصّورة الّتي تحدث في المعنى و الخاصّة الّتي حدثت فيه."¹⁴ فمن خلال هذه المقولة يشيد (الجرجاني) إلى الأركان الثلاثة للعلامة اللّغوية و هي: (الدالّ و المدلول و المحتوى الذّهني) و قد ذكر بما يقابلها بالترتيب: (أجراس الحروف و الصّورة الّتي تحدث في المعنى و الخاصّة الّتي حدثت فيه) و يمكن أن نجسدها في المثلث الآتي:

أصوات الحروف(الدالّ)



يمثّل الخطّ المتقطّع العلاقة الاعتباطية بين المدلول و الشيء الخارجي أو المرجع و قد أشار إليه -الجرجاني- " فاللّغة عند الجرجاني تتمظهر في تقابلات ثنائية قطباها اللفظ والمعنى."¹⁵ و هذه المستويات الثلاثة للعلامة اللّسانية تمثّل العناصر الرّئيسية في كلّ لغة، حيث يقول في هذا الصّدّد: " فكلّ من عرف أوضاع لغة أيّا كانت عربية أو فرنسية و عرف المغزى من ذلك من كلّ لفظة ثمّ ساعده اللّسان على النطق بها و على تأدية أجراسها و حروفها فهو بيّن في تلك اللّغة كامل الأداة بالغ عن البيان المبلّغ الذي لا مزيد عليه."¹⁶ فمعرفة أوضاع اللّغة؛ أيّ: قواعدها و أصولها هو ما يؤدّي الى بلوغ الغاية من الخطاب اللّغوي.

2- الجرجاني ومفاهيم النظرية التوليدية التحويلية:

تعدّ النظرية التوليدية التحويلية من النظريات اللغوية الحديثة، حيث "كان أول ظهور لها سنة (1957م) عندما نشر اللغوي الأمريكي نوام تشومسكي كتابه المشهور "التراكيب النحوية" طريقة النظرية التحويلية في سرد حقائق اللغة طريقة جديدة تخالف الطريقة التقليدية للنحويين، فهي طريقة تشبه معادلات الكيمياء أو متطابقات الجبر..."¹⁷

فقد جاءت هذه النظرية بالتعليقات والتفسيرات لكثير من الظواهر النحوية، حيث بينت مسألة الفطرة الكامنة في ذهن المتكلم وقدرته على إنتاج عدد من الجمل التي لم يسمع بها من قبل وفهمها، كما بينت مسألة الإبداعية في اللغة؛ لأنها نظرت إليها كنظام معرفي عقلي على عكس النظرية السلوكية التي اعتبرت اللغة مجموعة من العادات الصوتية التي تحدث نتيجة لمثيرات بيئية مختلفة، وهذا ما أدى إلى اختلاف النظرة إلى اللغة من كونها سلوكا إلى اعتبارها نظاما معرفيا عقليا، وأهم الثنائيات والمفاهيم التي أسست عليها هذه النظرية هي:

- الإبداعية في اللغة.

- ثنائية (التوليد والتحويل).

- ثنائية (البنية العميقة والبنية السطحية).

- ثنائية (الكفاية اللغوية والأداء الكلامي).

- المقبولية والصحة القواعدية.

وانطلاقا من هذه المفاهيم اللسانية و الثنائيات يمكن أن نطرح الإشكالية الآتية: هل وردت هذه المصطلحات والمفاهيم اللغوية في كتاب "دلائل الإعجاز في علم المعاني"؟ سنتناول في عرضنا هذا لنظرة كل من (الجرجاني) و(تشومسكي) للمصطلحات الآتية:

2-1- اللغة:

تعدّ اللغة عند (تشومسكي) أداة اجتماعية ووسيلة تواصل بين أبناء اللغة " تتكوّن من نظام معقد جدّا من الرموز أو قواعد استخدام تلك الرموز، والمتحدّثون من أبناء اللغة يجب أن يكونوا ملّمين بالرموز المستخدمة وقواعد الاستخدام المقبولة بما في ذلك مجموعات المفاهيم والكلمات والمورفيمات والفونيمات، فاللغة عنده إنجاز بشريّ استثنائيّ لذلك يطلق تشومسكي مسمّى النشاط الخلاق على هذه الإمكانية التي تعطيها اللغة لمتكلميها بغية بناء عبارات جديدة، بدلا من الاختيار فقط من داخل الجمل

المسبقة، فاللغة نظام توليدي وكلمة توليدي من الجذر "يولد"، الذي يعني الإنتاج والخلق، فاللغة بذلك وفقا له منتجة ومبدعة...¹⁸

انطلاقا من هذا، نجد أنّ (تشومسكي) انطلق في دراسته للغة من أساس عقليّ، رياضي الذي يدرس اللغة في إطار القوانين الداخلية لها، وإذا ما تأملنا كتاب دلائل الإعجاز لوجدناه يحدّد تراكيب الكلام بما يناسب العقل في ثلاثة أسس نلخصها في الآتي:

أ-إعمال الفكر: "...أنك تتوحّى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك."¹⁹؛ أي: اختيار المتكلم للألفاظ والكلمات التي تعبّر عن المعاني التي يقصدها المخاطب والحرص على تناسقها.

ب-ترتيب المعاني في النفس: ويؤكّد ذلك بقوله: "...هذا وأمر النظم ليس شيئا غير توحّى معاني فيما بين الكلم، وأنك ترتب المعاني في نفسك أولا ثمّ تحذو على ترتيب الألفاظ في نطقك."²⁰

ج-تركيب الكلام في سلاسل صوتية، في قوله: "ليس الغرض بنظم الكلم أن توالى ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل."²¹، ومنه فنظم الكلام وفقا (للجرجاني) يستلزم ترتيب المعاني في النفس؛ أي: أن تكون المعاني مناسبة للألفاظ التي يريد المتكلم إبلاغها للسامع.

يتضح لنا أنّ (الجرجاني) أتجه في دراسته للغة اتجاها عقليّا، مراعى في ذلك مجموعة القواعد اللغوية الموجودة في ذهن المتكلم وهو بهذا يسبق (تشومسكي) في ربط إنتاج الكلام بمقتضى العقل فا "لمنهج العقليّ هو الذي سيطر على فكر عبد القاهر ثمّ تشومسكي، فقادهما إلى اعتماد النحو التّقعيدي أساسا لإدراك القيمة الحقيقيّة للصياغة وما يمكن أن يتّجه هذا النحو من إمكانات تركيبية تقرب من الإنسان ومقاصده الواعية."²²

2-2- البنية العميقة والبنية السطحية:

يرى (تشومسكي) أنّ للتركيب بنيتين وهما: البنية العميقة وهي: "مستوى تجريديّ لهيئة التركيب تتمثّل فيه كلّ العناصر المحدّدة لتأويل التركيب."²³، أمّا البنية السطحية فهي: "التأويل الدلالي الذي يتحدّد بشكل بنائي أو تركيب في التّحقّق السطحي."²⁴ ومنه فالبنية العميقة هي البناء الداخلي الذي يعكس الجوانب العقلية والذي يتحقّق في الكلام،

والبنية السطحية هي المستوى الظاهر والناجى التّهاى للكلام فى سلاسل صوتية، فهل ورد مفهوم هاتين البنيتين عند (الجرجاني)؟

إذا ما استقرأنا نصوص كتاب "دلائل الإعجاز فى علم المعاني" نجد أنّ (الجرجاني) درس (المعنى) و(معنى المعنى) الذى يمكن أن نعبر بهما عن مصطلحي (البنية السطحية) و(البنية العميقة) على الترتيب، أما من حيث المفهوم فقد تناوله (الجرجاني) كالآتى:

أ- المعنى: يعرفه (الجرجاني) بقوله: "المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة."²⁵

يفهم من تعريفه، أنّ المعنى عنده يفهم من مجرد اللفظ فهو المدلول المتصور من اللفظ الظاهر، كما يرى أن كلاً من اللفظ والمعنى يترتب فى الفكر، حيث يشترط ترتيب الألفاظ باعتبارها أوعية للمعاني فالمعنى يستدعي اللفظ و اللفظ يعبر عن المعنى، ونجد هذا فى قوله: "إنه لا بدّ من ترتيب الألفاظ وتوالفها على النظم الخاصّ ليس هو الذى طلبته بالفكر، ولكنّه شيء يقع بالسبب الأوّل" المعنى "ضرورة من حيث أنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنّها لا محالة تتبع المعاني فى موقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً فى النفس وجب للفظ الدالّ عليه أن يكون مثله أولاً فى النطق."²⁶

نلاحظ من خلال هذا القول، أنّ (الجرجاني) يرى أنّ الألفاظ تابعة للمعاني ويعطى الأولوية للمعنى على اللفظ؛ لأنّ الأسبقية -حسبه- هي للمعاني فى الوجود النفسى " وهذا ما يفسّر لا نهائياً المعاني التى أقرها علماء الدلالة المحدثون مقابلة لنهاية الألفاظ."²⁷ ، فالمعنى يستدعي اللفظ و اللفظ يعبر عن المعاني الموجودة فى الذّهن.

ب- معنى المعنى: الدلالة على المعنى عند (الجرجاني) تنقسم إلى قسمين : دلالة مباشرة ودلالة غير مباشرة، حيث يقول: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل إليه منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وذلك إذا قصدت ألاّ تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو، فقلت : عمرو منطلق و على هذا القياس ... وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللّغة، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بنا إلى الغرض."²⁸

يتّضح من قول (الجرجاني)، أنّه جعل الكلام من الوحدات الأساسية فى الدلالة؛ لأنّ كلّ كلام يحمل معنى معيّن و الذى يجب أن يفهمه المتلقّي و يدركه عند سماعه من المتكلّم، لذلك نجده يركّز فى قوله على المستمع أو المستقبل؛ لأنّ فهم المعنى متوقّف

عليه، و قد مثل لدلالة اللفظ وحده بـ (خرج زيد) و (عمرو منطلق)، فبمجرد نطق المتكلم لهذه الجملة يفهم المتلقي معناها مباشرة في اللحظة ذاتها دون حاجة إلى تأمل أو تفسير أو تأويل، فقد عدّ (الجرجاني) الألفاظ هي الأداة التي تنقل المعاني المقصودة والحقيقية، وقد تفضي تلك الدلالة المباشرة إلى دلالة ثانية و هي التي لا يصل إليها المتلقي و لا يدركها إدراكا مباشرا إلا بعد أن يستدلّ على دلالتها غير المباشرة و هي التي يقصدها المتكلم؛ لأنّ " المعاني الثّواني هي التي يوماً إليها بتلك المعاني الأول." ²⁹ والمعاني الأول هي التي تفهم من اللفظ مباشرة، وقد جعل (الجرجاني) مدارك هذه المعاني على الصّور البيانية حيث يقول: " ألا ترى أنك إذا قلت: "هو كثير الرماد"، أو قلت: "طويل النّجاد"، أو قلت في المرأة: "نؤوم الضّحى" فإنّك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعين من مجرد اللفظ و لكن يدلّ اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السّامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال، معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من كثير رماد القدر أنّه مضيف، ومن طويل النّجاد أنّه طويل القامة ومن نؤوم الضّحى في المرأة أنّها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها." ، فقول القائل " فلان كثير رماد القدر" لا يفهم معه المعنى مباشرة من ظاهر اللفظ، لذلك يلجأ المتلقي إلى الاستدلال على المعاني الثّواني التي تمثّل قصد المتكلم و الذي لا يصل إليه المتلقي إلا بعد التّأويل." ³⁰ فالمخاطب لا يستدلّ على المعنى المقصود إلا بإعمال الفكر، فقد تبين لنا أنّ البنية السّطحية عند (الجرجاني) تتمثّل في الكلام الظاهر الناتج الذي لا يفهم منه المتلقي إلا معنى سطحيّ وقد تضمّن الكناية والاستعارة والمجاز، فقد كشف لنا (الجرجاني) عن الفرق بين (المعنى) و(معنى المعنى)، فالمعنى هو كلّ ما يتبادر إلى الذّهن من خلال القراءة الأولى للفظ وهو ما نصلح عليه بالبنية السّطحية والذي يوظفه السّامع أو المتلقي للوصول إلى (معنى المعنى) الذي يفسر المعنى الأوّل لقصد المتكلم و الذي يمثّل البنية العميقة عند (تشومسكي).

2-3-المقبولية والصحة القواعدية:

أشار (تشومسكي) إلى معيارين لإنتاج جمل صحيحة، وهما: المقبولية ويقصد بها: "التركيب المقبولة يكون إنتاجها أكثر احتمالاً من إنتاج غيرها وفهمها أكثر سهولة، ووصفها أكثر اتّفاقا وأكثر طبيعة بشكل من الأشكال، أمّا الجمل أقلّ قبولاً فإنّها تلك التي يغلب أن يتجنّبها المتكلمون ويستبدلونها بأخرى أكثر قبولاً." ³¹

أما مفهوم الصحة القواعدية " فتعود إلى قواعد اللغة القائمة ضمن الكفاية اللغوية لمتكلم اللغة.³² المقبولية إذا هي إنتاج المتكلم لعدد لا متناه من الجمل التي يفهمها المتلقي وتكون مقبولة لديه من حيث المعنى، والصحة القواعدية هي أن تخضع تلك الجمل لقواعد لغة المتكلم والمتلقي، فإذا قلنا مثلا: (تبهري الصحراء بمنظر بحرها)، فهذه الجملة صحيحة من الناحية التركيبية والنحوية؛ لأنها تتألف من (فعل+ فاعل+ حرف جر+ مضاف+ مضاف إليه) ومنه فهي موافقة لقواعد اللغة العربية، لكن إذا رجعنا إلى هذه الجملة من حيث المعنى نجد أنها غير مقبولة وخاطئة دلاليًا؛ لأن الصحراء خالية من البحر.

وقد ورد مفهوم الصحة القواعدية عند (الجرجاني) في قوله: "...وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظروا جوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وينطلق زيد وفي الشرط والجزاء... ويتصرف في التعريف والتكثير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وما ينبغي له."³³

نلاحظ ورود مصطلح (الصحة التركيبية) في قول (الجرجاني) الذي بين فيه كيفية تأليف الكلام وتركيبه تركيباً صحيحاً، والفرق بين تلك التراكمات من تقديم وتأخير وحذف وتكرار وغيرها من وجوه تأليف الكلام، كما أنّ نظرية النظم قائمة على اتباع القواعد النحوية، وهذا يتبين لنا دقة (الجرجاني) ومراعاته لصحة التراكمات اللغوية من حيث القواعد النحوية ومن حيث الدلالة.

3- الجرجاني ومفاهيم النظرية التداولية:

كما رأينا في الاتجاه التوليدي التحويلي السابق، فقد أكد (تشومسكي) على أنّ اللغة عبارة عن نظام ذهني موجود عند كل متكلم، أما الاتجاه التداولي فيدرس اللغة من حيث الاستعمال الفعلي لها وفهم مقاصد الخطاب وأغراضه " ويرجع الفضل في ظهور التداولية كمنهج ونظرية إلى الفيلسوف الإنجليزي أوستن إثر صدور كتابه الموسوم با: "كيف نصنع الأشياء بالكلمات" حيث تحدّد عنده التداولية على أنها: جزء من دراسة علم أعم هي دراسة التعامل اللغوي من حيث هو جزء من التعامل الاجتماعي.³⁴

فالتداولية تتجاوز المستوى اللغوي والنحوي للغة إلى المستوى التواصلية الاجتماعي وأغراض المتكلم فهي "الفرع العلمي المتكوّن من مجموعة العلوم اللغوية التي تختصّ بتحليل عمليّات الكلام بصفة خاصّة ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التّواصل بشكل عامّ".³⁵

وعند قراءتنا لنصوص من دلائل الإعجاز، نجد أنّ (الجرجاني) في حديثه عن نظرية النّظم يؤكّد في على أنّ النظم لا يكون إلّا عن قصد المتكلم الذي يحاول المستمع فهمه والبحث عن معناه "وجملة الأمر أنّه لا يكون ترتيب في شيء حتّى يكون هناك قصد إلى صورة وصفة، إن لم يقدّم فيه ما قدّم ولم يؤخّر ما أخر وبدئ بالذي ثنى به، أو ثنى بالذي ثلث به، لم تحصل لك تلك الصّورة وتلك الصّفة..."³⁶ وقد اهتمّ (الجرجاني) بالسّياق اللّغوي للكلام من خلال تأكّيده على الدّور الاجتماعيّ للغة حيث يقول: "إنّ النّاس إنّما يكلم بعضهم بعضاً؛ ليعرف السّامع غرض المتكلم ومقصوده".³⁷ ويقول كذلك في السّياق نفسه: "وإذا نظرتهم في الصّفة مثلاً فعرفت أنّها تتبع الموصوف وأنّ مثالها قولك: "جاءني رجل ظريف" و"مررت بزيد الظّريف" هل ظننتم أنّ وراء ذلك علماً وأنّ هاهنا صفة تخصّص وصفة توضح وتبيّن، وأنّ فائدة التّخصيص غير فائدة التّوضيح، كما أنّ فائدة الشّياخ غير فائدة الإيهام وأنّ صفة الصّفة لا يكون فيها تخصّيص ولا توضيح ولكن يؤتى بها مؤكّدة كقوله تعالى: "فإذا نفخ في الصّور نفخة واحدة".³⁸...³⁹

انطلاقاً من القول، يتبيّن لنا أنّ (الجرجاني) يؤكّد على ضرورة فهم معاني الصّفة التي تختلف باختلاف أغراض المتكلم من استعمالها للتّخصيص أو للتّوضيح، كما وضّح لنا أنّ الفائدة والغرض يختلف من صفة لأخرى وذلك تبعاً للسّياق الذي صيغت فيه فهو يشير من جهة أخرى إلى أهميّة الفهم الصّحيح لقصد المتكلم "لا يخفى على من له أدنى تمييز أنّ الأغراض التي تكون للنّاس في ذلك لا تعرف من الألفاظ ولكن تكون المعاني الحاصلة من مجموع الكلام أدلّة على الأغراض والمقاصد ولو كان الذي يكون غرض المتكلم يعلم من اللفظ ما كان لقولهم: "ضرب كذا مثلاً لكذا" معنى فما اللفظ "يضرب" مثلاً ولكن المعنى..."⁴⁰ فقد اهتمّ (الجرجاني) بالأركان الأساسيّة في النظرية التداولية وهما: (المرسل) و(المرسل إليه) و(الرسالة)، واللّغة عنده مرتبطة بعناصر ثلاثة

وهي: المتكلم، والمخاطب، والسِّيَاق أو المقام ف"دلالة الملفوظ تستلزم بالضّرورة معرفة المتقبّل بمقصد الباثّ التواصلي".⁴¹

وبهذا يتّضح لنا حرصه على ضرورة فهم المتلقّي لقصد المتكلم؛ لأنّ الرّسالة لا تؤدّي دورها إلّا إذا فهم المتلقّي غرضها؛ لذلك نجدّه يؤكّد ذلك بقوله: "...ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف".⁴² وفي تعريفه للدلالة يشير بدقّة إلى أطراف العمليّة الخطابية، فيقول: "الدّلالة على شيء هي لا محالة إعلامك السّامع إيّاه وليس بدليل ما أنت لا تعلم بمدلوله عليه، وإذا كان كذلك وكان ممّا يعلم بداءة المعقول أنّ النّاس إنّما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السّامع غرض المتكلم ومقصوده فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو؟ أهو أن يعلم السّامع وجود المخبر به من المخبر عنه؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه".⁴³

بناء على هذا فال(الجرجاني) يركّز في تحديده للدّلالة على مفهوم الإسناد وعلاقة المسند بأطراف العمليّة الخطابية، حيث يشير إلى مبدأين أساسيين في العمليّة الإسنادية وهما: إثبات الخبر للمسند إليه وإثبات الخبر من المسند إليه "ولذلك فهو يقيم دلالة الخطاب اللّغوي على قاعدة الإسناد التي توفّر لنا النّظر إلى ثلاثة أطراف في عمليّة الإبلاغ وهي: المسند و المسند إليه و ناقل الإسناد".⁴⁴ فالمسند يمثّل مضمون الخطاب، أمّا المسند إليه فهو المسؤول عن حقيقة المعنى و إفادته للسّامع و(ناقل الإسناد) هو المخاطب أو المتكلم. "وهو الذي يثبت وجود المعنى للمخبر عنه و قبل ذلك يكون (ناقل الإسناد) قد قام بترتيب الخطاب في نفسه قبل أن يصرفه إلى المتلقّي، وقد أخذ في ذلك مقام المتلقّي و حاله".⁴⁵ فقد ربط الدّلالة بالعمليّة البلاغية ومهمّة الإبلاغ المرتبطة بالمقام وما يترتّب عليه من تغيّر في المعنى؛ لأنّ دلالة الكلام عنده تتعلّق بقصد المتكلم الذي يهدف إلى إعلام السّامع بخبر ما، والذي قد يكون نفيًا أو إثباتًا، فالدّلالة عنده ترتبط بمبدأ القصدية؛ أي: "تتوقّف على أمر خارجي غير لغويّ يرجعه إلى قصد المتكلم من إعلام السّامع، إذ يدلّ صدقا على وجود المعنى المخبر عنه دون إثبات أو نفي فكأنّه أخلّى اللفظ من معناه و الخطاب من محتواه".⁴⁶

فليس كلّ خطاب يحمل دلالة -عند الجرجاني- بل مضمون الخطاب ودلالته يتوقّف على نفي الخبر أو إثباته وإلاّ عدّ اللفظ خالياً من المعنى.

خاتمة:

حاولنا في هذه الدّراسة الكشف عن أوجه المقاربة اللّسانية بين كتاب دلائل الإعجاز وبعض النظريات اللّسانية الحديثة، وقد وجدنا أنّ (الجرجاني) درس في كتابه أغلب القضايا اللّغوية التي ذكرناها في المدارس اللّسانية الحديثة، كما كان له السّبق الزّمني في التعرّض إليها، وهذا ما يعكس الفكر اللّساني الأصيل عنده.

الهوامش و الإحالات

¹ أبو الفضل جمال الدّين محمد ابن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، تح: محمّد أحمد حسب الله، هاشم محمّد الشاذلي دار المعارف، القاهرة، دت، دط، مادة (صلح).

² مجمع اللّغة العربيّة: المعجم الوسيط، مكتبة الشّروق الدوليّة، ط 2004، 4، مادة (صلح).

³ محمّد الشّريف الجرجاني: كتاب التّعريفات، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1995، دط، ص 28.

⁴ محمود فهد حجازي: الأسس اللّغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة، القاهرة، دط، دت، ص 12.

⁵ شفيقة العلوي: محاضرات في المدارس اللّسانية المعاصرة، أبحاث للترجمة والنّشر والتّوزيع، ط 2004، 1م، ص 12 وما بعدها.

⁶ فردينان دي سوسير: محاضرات في اللّسانيات العامّة، ترجمة: يوثيل يوسف عزيز، مراجعة النصّ العربي: مالك يوسف المطليبي، دار آفاق عربيّة، بغداد، ط 1985، 3، ص 80.

⁷ المرجع نفسه، ص 12.

- ⁸ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، اعتنى به: علي محمد زينو، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط1، (1426هـ-2005م)، ص386.
- ⁹ المصدر نفسه، ص386.
- ¹⁰ حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة، دار الكويت، الكويت، ط1، ص152.
- ¹¹ دي سوسير: محاضرات في اللسانيات العامة، ص150 وما بعدها.
- ¹² الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص375.
- ¹³ المصدر نفسه، ص54.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص386.
- ¹⁵ إنعام محمد عيسى: علم الدلالة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1435هـ-2014م)، ص287-288.
- ¹⁶ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص20-21.
- ¹⁷ محمد علي الخولي: قواعد تحويلية للغة العربية، دار المريخ للنشر، الرياض، ط1، 1981م، ص18-19.
- ¹⁸ روبرت وانز: مقدمة في التطور اللغوي، ترجمة: مصطفى محمد قاسم، دار الفكر، عمان، الأردن، ط2010م، ص71-110.
- ¹⁹ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص57.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص327.
- ²¹ المصدر نفسه، ص54.
- ²² محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، ط1995م، ص63.
- ²³ جورج يول: معرفة اللغة، ترجمة: محمود فراح عبد الحافظ، دار الوفاء للنشر، الإسكندرية، ط2000م، ص11.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص114.
- ²⁵ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص203.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص68.
- ²⁷ إنعام محمد عيسى: علم الدلالة، ص278.

- ²⁸ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 202
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 204
- ³⁰ ينظر: عزّ الدين اسماعيل: قراءة في معنى المعنى عند عبد القاهر الجرجاني، مجلة فصول، العدد الثالث والرابع أبريل، 1987م، المجلد 7، ص 40
- ³¹ تشومسكي: جوانب من نظرية النحو، تر: مرتضى جواد باقر، مطبعة جامعة الموصل، 1985، ص 34
- ³² ميلكا إيفيتش: اتجاهات البحث اللساني، تر: سعد عبد الحفيظ مصلوح، ووفاء كامل فايد، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط 2000، م 2، ص 385
- ³³ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 77
- ³⁴ فرانسو أرمينكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، دت، ص 96
- ³⁵ صلاح فضل: بلاغة الخطاب والنصّ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 10
- ³⁶ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 364
- ³⁷ المصدر نفسه، ص 357
- ³⁸ سورة الحاقة، الآية 13
- ³⁹ الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 43
- ⁴⁰ المصدر نفسه، ص 280
- صابر الحباشة: التداولية والحجاج، صفحات للدراسات والنشر، سورية، ط 2008، م 1، ص 83
- ⁴² الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 338
- ⁴³ المصدر نفسه، ص 642
- ⁴⁴ إنعام محمد عيسى: علم الدلالة، ص 287
- ⁴⁵ المرجع نفسه، ص 288
- ⁴⁶ المرجع نفسه، ص 286

